صور من الرؤية النقدية في تقسيم عصور الأدب العربي النيجيري

د. أبوبكر آدم مساما

مستخلص البحث:

من أوضح الواضح أن الأدب حي كائن يمتاز بالتطوّر والتجدّد حسب تغيّر العصور والأزمنة والأحوال السياسية والدينية والاجتماعية، ومن هذا المنطلق فإن النقّاد اهتمّوا بمراحل تطوّره في البيئات العربية منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، محاولين الوقوف على الخصائص الفنية الخاصة لكل عصر من تلك العصور، والحق أن هذه الظاهرة تمهّد للقارئ طريقة عقد المقارنة بين العصور الأدبية والفترات التاريخية للأدب العربي في البيئات العربية من النواحي الفنية المختلفة. ولعلّ هذا هو السرّ في تأثّر بعض البيئات غير العربية بهذا الاتجاه التاريخي في أدبها العربي، ومن تلك البيئات التي تأثّرت بهذا الاتجاه في تاريخ أدبها العربي (بيئة نيجيريا). إن أدبائنا النيجيريين قد اعتنوا عناية فائقة بدراسة مراحل الحركة الأدبية العربية في منطقتهم، وابتكروا فيها ابتكارا حسنا، ومن ابتكاراتهم في هذا الميدان تقسيمهم الحركة الأدبية النيجيرية إلى عصور وفترات، محاولين رصد حركة الأدب العربي النيجيري عبر مراحل نشأتها وتطوّرها. وهدف الباحث في هذه العجالة عرض صور من آراء بعض نقاد الأدب العربي في تقسيم عصور الأدب العربي النيجيري، ودراستها دراسة نقديا، ومنهج الباحث في هذه الدراسة منهج تحليلي قائم على المقاييس الأدبية النقدية.

عصور الأدب العربي النيجيري بين الكتاب:

إن أدبائنا النيجيريين قد اعتنوا عناية فائقة بدراسة مراحل الحركة الأدبية العربية في منطقتهم، وابتكروا فيها ابتكارا حسنا، وكان العلامة الشيخ عبد الله الإلوري من أوائل من حاول تقسيم الأدب العربي النيجيري إلى عصور، وهي عنده خمسة سمّاها كما يلي:

١- العصر البرناوي.
٢- العصر المغيلي.
٣- العصر الونغري.
٤- العصر الفلاّني.
٥- العصر الإنجليزي.١

وتبعه في هذا التقسيم شيخو أحمد سعيد غلادنثى، فقسّم الحركة العربية في نيجيريا إلى خمسة أقسام كذلك، إلا أنه سمّاها فترات وهى عنده كالآتى:

١- فترة تأسيس المماليك والولايات.
٢- فترة الوفود والحركات الثقافية الإسلامية.
٣- فترة دولة صكتو.
٤ - فترة الاستعمار.
٥- فترة الاستقلال.٢

وزاد الكاتب زكريا إدريس في تقسيمه عصرا واحدا، فصارت عنده ستة عصور:

١- عصر الاستهلال.
٢- عصر الاسترشاد.
٣- عصر الاستقرار.
٤- عصر الاستعمار.
٥- عصر الاستقلال.
٦- عصر الازدهار.٣

وأما الكاتب كبير آدم تدن نفاوا فإن اتّجاهه في بحثه عن العصور الأدبية النيجيرية يخالف اتّجاه سابقيه، حيث رأى أن الطرافة المثلى أن يذهب مذهب الضمّ لا التفريق، وأن يخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب، فألّف كتابه: المدخل إلى الأدب العربي النيجيري في جزئين: الجزء الأول: في القرن التاسع عشر الميلادي، والثاني: في القرن العشرين الميلادي.٤

استطاع الأستاذ كبير آدم بهذا الاتجاه أن يقسّم العصور الأدبية النيجيرية إلى قسمين:

١- الأدب العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي.
٢- الأدب العربي النيجيري في القرن العشرين الميلادي.

صور من الرؤية النقدية في تقسيم عصور الأدب العربي النيجيري:

وقد بذل بعض النقاد المعاصرين قصارى جهدهم في البحث والكتابة وإبداء اتجاهاتهم النقدية حول تقسيم عصور الأدب العربي النيجيري. وأما الكاتبة حواء محمد البخاري فإنها ذهبت إلى أنّ تلك التقسيمات قد تمهد للدارس طريقة عقد المقارنة بين العصور الأدبية في البيئة العربية والفترات التاريخية للأدب العربي النيجيري كالآتي: بين العصر الجاهلي وعصر الاستهلال في نيجيريا، وبين عصر صدر الإسلام والأموي وعصر الاسترشاد، وبين العصر العباسي وعصر الاستقرار، وبين عصر الانحطاط وعصر الاستعمار، وبين عصر النهضة الحديثة وعصر الاستقلال والازدهار.٥ إلا أنها أشارت إشارة جليّة إلى ما في تلك التقسيمات من الاتباس حيث تقول: " يطيب لي الحديث عن عصور الأدب العربي النيجيري أو الفترات التاريخية لنموه وازدهاره. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنه يصعب ترتيب تلك العصور على وجه التحديد لتقاربها وتداخلها وتشابكها إلى حد الالتباس في بعضها، وفي اتحاد مضامينها الشعرية وموضوعاتها في النثر الفني وأساليبها..."٦

وهذا ظاهر لو رجعنا إلى ما قامت به الكاتبة حواء نفسها من محاولة عقد المقارنة بين العصور الأدبية في بيئة العرب والعصور الأدبية النيجيرية، لأدركنا أنها وقعت في التباس غير خفي، نتيجة التداخل بين تلك العصور، إذ هي قارنت تارة بين العصرين المختلفين في بيئة العرب وعصر واحد من العصور الأدبية النيجيرية: كما هو ظاهر(بين عصر صدر الإسلام والأموي، وعصر الاسترشاد)، وأخرى بين العصر الواحد في بيئة العرب والعصرين المختلفين في الأدب العربي النيجيري: (بين عصر النهضة الحديثة، وعصر الاستقلال والازدهار.) وأسوء من هذا عقد المقارنة بين العصر الجاهلي العصر الذي بلغ الأدب العربي ذروة سنامه فيه عند العرب، وعصر الاستهلال الذي بدأت اللغة العربية نفسها تظهر فيه على يد العلماء القلائل في بلاد نيجيريا.

ومِمَّنْ أدركوا مجانبة الصواب في هذه التقسيمات من النقاد المعاصرين الدكتور مرتضى بن عبد السلام الحقيقي، وذلك حين انتقد تقسيم العصور الأدبية النيجيرية لدى الأستاذ زكريا إدريس حسين قائلا: ".. لقد أقرّ الأستاذ نفسه بغموض تقسيمه العصور الأدبية حين راح يذيّله باتجاه الإلوري مع تصرف يسير كما جاء في كتابه: عصر الاستهلال أو عصر كانم والموحدين... ومن ثم ندرك أن هذه التقسيمات عالة على ما قبلها، وهو لا يحقق الطرافة كما يزعمه البعض..."٧

وقد سبق الحقيقي بعضُ النقاد في هذا الاتجاه النقدي بالنسبة للأدب العربي العام، وممن أدركوا عدم جدوى الارتباط بين الأدب وتطوره وبين التغيرات السياسية من النقاد كارلو نالينو، فإنه قد قرّر صراحة بإعادة النظر في هذه التقسيمات قائلا: "إن هذه الحدود ليست إلا حدودا صناعية اصطلاحية.. فإن عصرا ما سواء من التاريخ السياسي أم تاريخ الآداب والعلوم لا يحصر في مواقيت معينة بدقة.. لأن كل حي وكل نوع أو فرع من الهيئة الاجتماعية لا تتغير أحواله بديها أبدا، بل من المشهور أن الانتقال من حال إلى حال لا يحصل إلا باتدريج البطئ حتى لا يشعر في الأغلب بالفرق بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها.."٨

وإذا ما رجعنا إلى اختلاف الكتاب في تقسيم عصور الأدب العبري النيجيري، فإننا نلاحظ إنما هو ناشئ من هذا التباس، حيث فكّ العلامة الإلوري بين العصر المغيلي والونغري، وضمّ بينهما البروفيسور غلادنثي لارتباط العصرين وتقاربهما فسمّاهما: فترة الوفود والحركات الثقافية الإسلامية، وهي التي سمّاها الكاتب زكريا إدريس: عصر الاسترشاد. وفكّ غلادنثي العصر الانجليزي إلى الفترتين: فترة الاستعمار، والاستقلال، حيث اعتبر الإلوري الفترتين عصرا واحدا فسمّاه العصر الإنجليزي، وذلك لقرب الفترتين وتداخل بعضهما في البعض. وفكّ الكاتب زكرياء إدريس عصر الاستقلال حيث استنبط منه عصر الازدهار. ويبدو للباحث إعادة النظر في هذا التفريق لقلّة جدواه، إذ الخصائص الأدبية الفنية تكاد تتّفق بين تلك العصور، إلا في بعض الجزئيات، وذلك لقربها ولتداخل بعضها في بعض.

وأما اتّجاه الضمّ والجمع بين بعض العصور الذي ذهب إليه الأستاذ كبير آدم حيث قسّم العصور الأدبية النيجيرية إلى قسمين، ففيه نظر أيضا، إذ هناك حركة أدبية قبل القرن التاسع عشر وقد أهملها هذا التقسيم.

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن التقسيم المناسب للعصور الأدبية النيجيرية – حسب رأي الباحث – فيأتي

فيما يلي:

١- عصر الأدب العربي النيجيري القديم.

٢- عصر الأدب العربي النيجيري الحديث.

ولعلّ هذا التقسيم يكون شاملا ودقيقا، إذ يتيح للباحث فرصة سانحة للوقوف على الصور الفنية الخاصة لأدب لكل عصر، وذلك للتباين الذي بين العصرين من نواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولاختلاف مضامينهما الشعرية وموضوعاتها وأساليبها.

أطوار الشعر العربي عبر العصرين:

١ - عصر الأدب العربي النيجيري القديم. : (١٠٠٠ - ١٩٠٣م).

ممّا هو ثابت لدى المؤرخين أن العربية قد وصلت إلى منطقة نيجيريا في فترة مبكرة، وذلك قبل قدوم الإسلام إليها بسنوات. وقد تمّ وصول العربية إلى المنطقة بفضل عملية التجارة التي وقعت بين بلدان جنوبي الصحراء الكبرى وبعض دول شمالي إفريقيا التي كان تجارها - أغلبهم عرب - يأتون إلى برنو وبعض إمارات هوسا للبيع والشراع فيها. ويرى المؤرخون أن تاريخ تلك العملية التجارية يعود إلى القرن العاشر الميلادي.٩ وازداد شأن اللغة العربية في المنطقة في القرن الحادي عشر الميلادي حينما جعل مَيْ بَرْنُو أي ملكها الإسلام الدين الرسمي للمملكة عام: ١٠٨٥م.١٠ فذلك الملك هو هَمِي جُلْمِي الملك الثاني عشر في قائمة ملوكهم، والذي سمّى نفسه بعد إسلامه (محمد).١١ أسلم عدد من الناس في هذا العهد وتعلم بعضهم القرآن ومبادئ العلوم العربية والإسلامية، على أيدي هؤلاء التجار المسلمين، إلا أنه لم يظهر في ذلك العصر إلا علماء قلائل بدأوا يستشهدون بأشعار سمعوها من أولئك التجار العرب، ويرددّونها في مواعيظهم تأسيا بهم.

ثم تطوّر وضع الشعر من مرحلة الاستشهاد بأشعار الغير إلى مرحلة إنشاء القصائد، فبدأ العلماء النيجيريون ينظمون القصائد في الشعر الإسلامي، وممن استطاع الدارسون العثور عليه من شعراء هذه الفترة الشيخ النجيب محمد بن العلامة سليمان. ومن أشعاره هذه الأبيات التي جاءت في ذمّ العلماء المشتغلين بعلم النجوم تاركين كتاب الله وسنة نبيه حيث قال:

من عذيري من أناس نجموا
أفسدوا الدين وأبدوا كل ضر؟
تركوا علم الكتاب المنزل
والحديث جابه هادي البشر
وعلوم الشرع والفقه التي
تنفع المرء وتحميه الخطر
صرفوا الهم إلى مصرفهم
لحطام زائل لا يستقر
آثروا الدنيا على أخراهم
لم يبالو ما يؤديهم لضر
وعلى وفق رووه حيلة
لاكتساب المال والجاه المضر
جعلوه وصلة تدنيهم
لبني الدنيا فآبوا بضرر
لقّبوه علم سر كذبوا
ماله والسر لكن علم شر
إنما السر علوما بثها
أولياء الله أصحاب النظر
سلهم هل يعرفون حكمها
قد تعاطوه لدى أهل البصر
ولعمرى هو دهليز الردى
ولكفر قد يؤدي في العبر
ما ترى فمن تقضى عمره
لارتصاد فى شميس وقمر؟
يرتجى السول ودفع الضر من
هذه الأشياء لبئس المنتظر
يا عباد الله يا أهل التقى
أبغضوهم واهجروهم بالهجر
أفسدوا الدين وأطفوا نوره
هم عداة الدين فى هذا العصر
صلّ يا رب وسلم دائما
للنبي المصطفى هادي البشر١٢

فالقصيدة صورة واضحة لأولية الشعر العربي النيجيري فإنه نشأ نشأة إسلامية، ومن الواضح أن الأدب العربي النيجيري وليد الإسلام، فالعلماء هم الأدباء، والأدب عندهم وسيلة لا الغاية، والغاية القصوى لديهم فهم هذا الدين الحنيف وبث تعاليمه وأفكاره وقيمه في نفوس الناس. كما هو ظاهر في قول أغاكا: "ولا تخل وظيفة الشعر عند النيجيريين من منابع الدين والأخلاق، لا تنفصل عنهما قط، فيحس الشاعر بإسلامه قبل أن يحس بنفسه، ويخضع أدبه لسلطة دينه ولا العكس. والشعر بالنسبة لهم أداة للدفاع عن عقيدتهم السمحة، ومناصرة الحق، ونشر الأخلاق الفاضلة، وقمع الفساد والإلحاد."١٣ ثمّ توالت زيارات العلماء والدعاة إلى أقاليم غرب إفريقيا من بلاد العرب كزيارة الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي، والشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي إلى بلاد كَنُو، وكَشنَه، وكذلك وفد دعاة الوناغرة إلى بلاد هَوْسَا في نيجيريا الشمالية من أراضي غِيْنِي.

وبهذه الزيارة الميمونة تغيّر ذوق علماء المنطقة بالدراسات الإسلامية والعربية من خلال قراءتهم العميقة الواعية بالكتب الإسلامية والعربية الأصيلة المستلهمة، والتي جاء بأكثرها أولئك الدعاة، وتأثّر العلماء النيجيريون بها كثيرا: فكرة وأسلوبا١٤. ومن مشاهير الشعراء الذين شربوا من فيضان هؤلاء الوفود، ولمعت إنتاجاتهم الشعرية العالم الشهير في كَشنَه: ابن الصّباغ المتوفى عام: ١٦٥٥م. ومن النماذج من شعره الأبيات التالية:

الحمد لله الذي هداني
بفضله وسرت كالسمان
أذن الدخول والإتسان
لذلك الروضة والبستان
ثم جلست جلسة الشعبان
في كل فن ذقته ملئان
فقه وتفسير كذا الاطلاع
نحو وتصريف بلا توان
علم البديع قله والبيان
علم المعاني قله والحسبان
لغتنا ومنطق علمان
ضبط وتجويد على القرآن
علم قوافي الشعر والميزان
علم الحديث لا يكن نسان
علم الخواص ذقته ملآن
وعلم خط الرمل ترجمان
تركته مخافة الطغيان
لما به من كثرة البهتان.١٥

وردت الأبيات السابقة في شكر النعم التي أنعم الله على الشاعر، من إتقان الفنون العلمية النافعة من: فقه، وتفسير، ونحو، وتصريف، وبلاغة، ومنطق، وتجويد، وعروض، وقافية، ومصطلح الحديث. ولكنّه ترك تعلّم علم الرمل والحساب مخافة من الزيغ والانحراف. وإن دلّ هذا على شئ فإنما يدل على تثقف بعض علماء هذا العصر بالثقافة العربية الإسلامية الواسعة أكثر من ذي قبل، فارتفعت إنتاجاتهم الشعرية إلى درجة توصيف الفنون العلمية المتداولة بين العلماء والمثقفين في تلك الفترة.

ثم انبثق نور الثورة الإسلامية التي قادها المصلح الكبير في غرب إفريقيا الشيخ عثمان بن فودي في القرن التاسع عشر الميلادي، وبالتحديد من عام: ١٨٠٤م. وبهذه الثورة الإسلامية، والإصلاح الديني في البلاد استتبت الدولة الإسلامية في ولايات هَوْسَا، وبلاد نُوّفِي، وجزء من بلاد يُورُبَا، وإيِبِيرَا وإغَالاَ وقبائل أخرى في البلاد المجاورة لولايات هَوْسَا.١٦

فكانت اللغة العربية لغة رسمية في الدولة، بها تكتب الدواوين، والمراسلات بين الأمراء. تطوّر الشعر في هذا الطور إلى حد النضوج، فكان الشعراء يقرضون أشعارهم في الأغراض المشهورة عند شعراء العرب القدماء، وذلك لشدة تأثّرهم بشعراء العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام مثل: امرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وعنترة بن شداد، وحسان بن ثابت، وكعب بن زهير، والخنساء، وغيرهم. ومن الأغراض الشعرية التي تناولها الشعراء في هذا الطور: الثناء على الله، والوعظ الإرشاد، والمديح، والرثاء، وشعر الجهاد، وشعر التوسلات، والشعر التعليمي، والشكوى، والتخميس.١٧ ومن أبرز شعراء المديح في هذه الفترة الشيخ عبد الله بن فودي، عربي السودان الأخ الشقيق للشيخ عثمان بن فودي ووزيره الأكبر الذي تجرأ على القول والجمع لقصائده في ديوانه: (تزيين الورقات ببعض ما لي من الأبيات) بدون خشية ناقد ولا طعن طاعن.١٨ ومن أشهر مديحه جيميته التي مدح بها أستاذه الشيخ جبريل بن عمر، وشقيقه الشيخ عثمان بن فودي. ومن أبياتها ما يلي:

عج نحو أضواج الأحبّة من مج
واشرب من الأنشاج ماء الزّعْبَج
ثُجَّ الدّموعَ على منازلهم بها
واشف الجَنانَ من الهموم الدُّمَّج
قف عندها سَلْ مَنْ بها فعسى تُجِبْ
حَوْجاءَ أو لوجاءَ تُرْضِىْ مَنْ شُجِ
وإذا مَرَرْتَ مَرَةً حَيِّي حَيِّهم
وانشر عليهم لؤلؤا وزبردج

أما عن ممدوحه الأول فقد قال فيه:

شيخ الشيوخ فريد دهر ظاهر
فوق المبارز بالعلوم متوّج
جبريل من جبر الإله لنا به
دينا حنيفا مستقيم المنهج١٩

ودلت هذه القصيدة بالصراحة على نضوج الشعر العربي في هذا العصر، حيث وردت على منهج فحول شعراء الجاهلية، من حيث جزالة الألفاظ، ومتانة الأسلوب، وأصالة البناء. وقد تحدث الدكتور علي أبوبكر قديما عن ذوق الأستاذ عبد الله بن فودي في هذه القصيدة حيث قال: "وإذا ألقينا نظرة على باب المديح نجد أن الشيخ عبد الله بن فودي هو فارس ذلك الميدان الذي لا يشق غباره، ويمتاز في المديح بتخير الألفاظ الجزلة والكلمات الصعبة أحيانا، وقد تأثر بقصائد شعراء الجاهلية."٢٠

٢ - عصر الأدب العربي النيجيري الحديث: (١٩٠٣ - .....م):

ويبدأ هذا العصر باستيلاء بريطانيا

على نيجيريا في طليعة القرن العشرين الميلادي، وبالتحيد عام ١٩٠٣م إلى عصرنا الراهن.

سطت بريطانيا على نيجيريا في طليعة القرن العشرين الميلادي، وبالتحيد عام ١٩٠٣م حيث تغلّبت على المسئولين في هذه الديار بقوة الأسلحة الفتاكة الحديثة بعد نضال شديد خصوصا في خلافة صُكُتُو وإمارات كَنُو، ونُوبِفِ، وكُونْتَاغُورَا. قتل الجيوش البريطانية الناس وحرقوا المساكن ونهبوا أموال المغلوبين وآثارهم النفسية.٢١ وقد نجح المستعمرون في القضاء على معظم ما أسّسه بنو فودي وأعوانهم في منطقة شمال نيجيريا في القرن التاسع عشر الميلادي. حرقوا كتبا كثيرة في قرية سَالاَمِي، التي أسّس فيها الشيخ عثمان بن فودي مكتبة كبيرة لطلاب العلم، وسرقوا منها كثيرا من الكتب، وعلاوة على ما ذكر، فإن مكائد المستعمرين ضدّ الإسلام واللغة العربية لم تتوقف عند هذا الحد. فقد أبعدوا اللغة العربية عن ميدان التعليم، وأسكتوها، وأحطّوا بدرجتها، وغرسوا كراهيتها في نفوس الناس، والاشمئزاز عنها عن طريق غير مباشر. وهذا هو عين ما أحدثه المستعمرون في المنطقة التي شهدت ازدهارا مرموقا في الدراسات الإسلامية والعربية قرونا عديدة.٢٢

وقد أحدثت تلك الحالة السياسية الظالمة تغيّرا لطيفا فى الشعر العربي النيجيري، ولا غرابة في جمود الشعر العربي خلال هذه الحالة السيئة بالنسبة للغة العربية وآدابها في هذه البلاد، وفي عام ١٩٣٤م ظهر في أمر التعليم العربي النيجيري تقدّما ملموسا، حيث أسّست مدرسة الشريعة الكبرى في كَنُو. وقد أتاحت المدرسة للطلاب الذين تخرجوا من المدارس العربية الحكومية وغير الحكومية فرصة مواصلة الدراسة فيها، يعد تأسيس تلك المدرسة انفجارا كبيرا في انتعاش اللغة العربية وآدابها في نيجيريا بصورة عامة.

ثم بدأت عملية البعثات تنتعش في عام: ١٩٥٢م، حين كوّنت حكومة شمال نيجيريا لجنة خاصة تشرف على الأمر. وقد جاء هذا التكوين تلبية لمطالب المواطنين المسلمين ورجال السياسة الذين استدعوا الحكومة بتقديم تعديلات في سياستها العلمية لمصلحة التعليم الديني والعربي، ففي نهاية المطاف قررت الحكومة إرسال الطلبة إلى جمهورية السودان للحصول على شهادة الدبلوم في التربية والتدريس. وقد ذهبت الدفعة الأولى إلى بخت الرضا، عام: ١٩٥٤م لدراسة المواد العربية والإسلامية والتربية، وعادت إلى نيجيريا عام: ١٩٥٥م بعد قضاء سنة دراسية كاملة في جمهورية السودان، وكان عدد أعضائها ستة، فيما يلي ذكر أسمائهم: الشيخ أبوبكر محمود جومي، والشيخ خضر بنجي، والدكتور حسن إبراهيم غُرْزو، والبروفيسور شيخو أحمد سعيد غلادنثي، والأستاذ عبد القادر إمام، والأستاذ إبراهيم فاروق.٢٣

فمن هنا بدأ نموّ إحساس أولئك الأساتذة المثقفين بحرية الشعب يظهر شيئا فشيئا، إحساسا حدا بهم إلى ممارسة (شعر المقاومة السياسي)، قاوموا حركة الاستعمار البريطاني كلّ المقاومة، متعاونين مع كبار الشخصيات والساسة المواطنين، وتمكنوا من رفع علم الاستقلال إلى درجة عالية حتى أفل نجم الاستعمار البريطاني في نيجيريا عام: ١٩٦٠م. ٢٤

ومن أبرز شعراء المقاومة السياسية في نيجيريا الشيخ أبوبكر محمود جومي٢٥ فاستمع إليه يقول:

يا لَقومي فكيف انقلب الظّهرُ
لبطنٍ وحلّ أمر نظاما
هل عجزنا فقام بالجدِّ قومٌ
وانتقاموا لِمَا مضى انتقاما
أو تركنا الطّريقَ فَاطَّلَعَ الْقو
مُ وصدّوه دوننا أعواما
أو نسينا وعدَ الإله على النّصر
لِمَنْ جاهد السّبيل إماما
فسقانا كأسَ الْهوانِ فداستْ
قدمُ مستعمر رقابا وهاما
فاجمعوا أمرَكم أيا ملَّةَ الإسلام
في ردِّ عزّكم وسلاما
ما لنا هيبةٌ لما قد تركنا
منْ بنا المجد فالتوى ليقاما
فالنّجاةَ النّجاةَ قبل فوات
باقتفاء الذين أَدُّوا ذِماما
قصدُنا وحدةُ البلاد جميعا
وانفصالٌ عن العدوّ انفصاما٢٦

فالشّاعر في هذه القصيدة شاعر سياسي قومي، حيث يستشعر الحريّة القومية فيتحدّث عن مطامع قومه السّياسيّة، فهو يحمل على المستعمرين حملة عنيفة، ويطالب بحكّام من الأهالي كالحكّام الأوّلين في عهد بني فودي الذين ساروا في الناس سيرة عادلة.

وبحلول الاستقلال السياسي نهض المسلمون وزاد نشاطهم في تحقيق أمانيهم، لا سيّما قد تنبّه المسلمون لظاهرة تأخّرهم وضيق فرصهم في التعليم العالي ثم الفارق التعليمي بين سكان شمال البلاد وجنوبها،

عندها تعالت صيحاتهم لمزيد من الجامعات في الشمال، فاتّجه التخطيط لإنشاء جامعات جديدة، وقد بدأت في شكل كليات ثم انتهت إلى جامعات، حيث وصل تعداد الجامعات إلى تسعة عشر جامعة منها إحدى عشر في شمال البلاد والبقية في جنوبها.٢٧

ويمكن القول بأن كثرة المؤسسات التعليمية في شمال نيجيريا بعد الاستقلال قد دفع بعجلة التعليم بنوعيه العربي والإنجليزي بين المسلمين، ونتج عن ذلك مجموعة من الشعراء المثقفين الذين يحملون بين جوانحهم إشراقات المستقبل للغة العربية في بلادهم. ولم يكن هؤلاء الشعراء يرون في محاولات إنزال اللغة الإنجليزية مكان العربية إلا تغريبا للملامح القومية، إذ اللغة العربية هي التي تمثل أبرز الروابط بين ماضي نيجيريا وحاضرها. فلما ظهر ميل الناس إلى الإنجليزية نطقا وكتابة، أطلق شاعرنا أحمد بن محمد الملقب بـ مَالَمْ نَتَّالاَ٢٨ قصيدته معبرا عن مكانة اللغة العربية في طلابها:

ثنوت أنان فكري في أناة
إلى أمّ العروبة واللغات
شغفت بحبّها من غير غشّ
وظنّ الناس أنّى في الغواة
لأنّى مولع بعجوز قوم
فقالوا إنّها مثل الرفاة
وكيف أحبّ من عاشت قرونا
وأترك شابة بنت السراة
فقلت لهم صدقتم في الكلام
لقد كانت عجوزا في الحياة
عجوز غير أن الجسم منها
بهيّ فاق جسم الغانيات
لها وجه كبدر في الجمال
وشعر مثل أشعار الفتاة
وعاشت تنجب الأطفال دهرا
لهذا اليوم تأتي بالبنات
عرائسها جميلات حسان
يرحن إلى معاني المفردات
لها صوت مبين ليس فيه
غموض والتواء في اللهاة
هي العربية الفصحى أخىّ
وقاها الله من شرّ العداة
لقد بهرت لغات نازلتها
كما وسعت علوم الكائنات٢٩

ثم ظهرت في الشعر العربي النيجيري ملامح التجديد ثمرة نشاطات الشعراء المحدثين الذين تخرجوا من المدارس العليا والجامعات. فلا يفوت من له إلمام بانبثاق الثقافة العربية في هذه البلاد أن نهضة الأدب العربي قد بدأت.٣٠ وذلك لعوامل عدة منها:

١- فشوّ المدارس والمعاهد العربية في ولايات نيجيريا المختلفة، حيث كثرت فرص لتعلم اللغة العربية وتعليمها أكثر من ذي قبل.

٢- إن كثيرا من جامعات نيجيريا قد افتتحت أقساما فيها لتدريس اللغة العربية وآدابها لنيل درجات علمية مختلفة، حتى أصبح من الصعب الآن أن يحصى عدد من نال درجة الماجستير والدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من الأهالي، فضلا عن درجة الليسانس والدبلوم.

٣- ظهور آلة الكتابة الحديثة (الحاسوب: الكمبوتر)، الأمر الذي أدّى إلى تسهيل أمر الطباعة والبحث والإنتاج، فلما تجد طالبا جادا إلاّ وله الحاسوب، فضلا عن عالم أو مدرس.

٤- نشر الكتب العربية القديمة والحديثة في لاَغُوسْ، وكَنُو، وكَدُونَا، وأَوْتشِي، وإبَادَنْ وصُكُتُو، وإلُورِنْ، ومَيْدُغُرِي، وزَارِيَا، وغيرها من مدن نيجيريا.٣١

فبدأت ملامح التطوّر والتجديد تظهر في الشعر من حيث الوضوع والشكل، وأما من الناحية الموضوعية فقد تطوّرت بعض الموضوعات التقليدية الموروثة، خذ الرثاء مثلا، فإنه تطوّر إلى: رثاء المدن، والرثاء السياسي، والرثاء المذهبي.

وأما من الناحية الشكلية فقد تطرق بعض الشعراء (الشعر الحرّ)، أمثال الأستاذ الدكتور عبد الحفيظ أيندي أولادوسو،٣٢ له ديوانان في الشعر الحر سمّاهما: (الليل الأبيض)، و(السجن الفتوح). ومن أمثلة شعره الحرّ قصيدته المعنونة بـ (هل جنى أبوي علي) التي يقول فيها:

ولدت
ولدت كما تولد النمل
ولدت كما تولد الطير في العشّ
كما تولد الأولاد
ولدت كما تولد الأحياء
وكما تولد الأموات
طفلا عراة
ولدت باكيا
ولكن لماذا؟
لا ضاحكا
لست أدري.....٣٣

تأمل أيها القارئ الكريم كيف تغير شكل الشعر لدى هذا الشاعر المعاصر، هو شعر ذو شطر واحد ليس له طول ثابت، ويتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر. فعناية الشاعر فيه تنصبّ على المضمون

وتصويره للحياة الإنسانية، فعبّر عن إحساسه ومشاعره على أحوال الجنين في رحم الأم قبل ولادته، مشيرا إلى أن خلق الجنين الإنساني لا يختلف عن خلق غيره من المخلوقات.

ومن التجديد الشكلي في الشعر العربي النيجيري الازدواج، من ذلك قصيدة إبراهيم جالو محمد جالنغو المزدوجة، في رثاء الشيخ إبراهيم باوا ميشنكافا، حيث يقول:

يَا "بَاوَا" إنّي بَعدَ مَوتكَ في جَوَى
لَارَوْحَ لي فَرْدًا وَلَا في مُلْتَقَى
جَاهَدْتُ أَنْ أجِدَ الْخَلَاصَ منَ الْأَسَى
فَوَجَدْتُ أنْ لَيْسَ الْمَفَرَ منَ الْجَوَى
كَيْفَ التَّفَلُّتُ منْ عَرَاقيل الْبَلَا
عَمَّ الْمَدَائنَ مُثْلَمَا عَمَّ الْقُرَى
مَاطَابَ لي عَيْشٌ وَلَا نِلْتُ الْمُنَى
كَيْفَ الْمَعيشَةُ غِبْتَ عَنّا في الثَّرَى
أيَطيبُ عَيْشٌ بَعْدَ أنْ مَاتَ الْفَتَى
مَلَكَ الْقُلُوبَ بعلْمه لَا بالْعَصَا٣٤

قد عرفنا أنّ الرّويّ هو الحرف الصحيح آخر البيت، وهو إما ساكن أو متحرك. ومن هذا المنطلق فإنّ الرّوي فى القصيدة أو الحرف الذى بُنيتْ عليه مزدوج بين الحروف الآتية على ترتيب الأبيات إلى نهاية القصيدة:

"القاف" – "الواو" – "الرّاء" – "الرّاء " – "الصّاد " – "القاف" – "الدّال" – "الهاء" – "الدّال" – "الدّال" – "الرّاء" – "الدّال" – "الغين" – "الغين" – " الرّاء" – "الجيم" –"النّون" –الباء" – "اللّام" – " الرّاء" – "اللاّم" – "الفاء" – "الجيم".

منها المتكرّرة وغير المتكرّرة:

أ– الحروف المتكرّرة: "الراء" خمس مرات، "الدال" ثلاث مرات، "القاف" مرتان، "الواو" مرتان، "الغين" مرتان، "الجيم" مرتان، "اللام" مرتان.

ب– غير المتكرّرة: "الصاد" و "الهاء" و "النون" و "الباء" و "الفاء".

والحقيقة أنّ الازدواج أو تغيّر القوافي وعدم التزام الشاعر قافية واحدة ممّا يعيبه النّقاد. وعلى أيّة حال فقد نظم شعراء القرن الثاني الهجري في المزدوجات، وعَدَّ بعضُ الباحثين الازدواج من الاتجاهات الشّكلية الجديدة التي طرأت على شعر القرن، كما هو واضح في الديوان المخطوط رواية الأصفهاني حيث نجد مزدوجة لأبي نواس يقول فيها:

يا راقدَ اللّيل
احذرْ منَ الوَيل
لا تأْمَن الدّهْرا
إنّ له غَدْرا
الدّهر ذو صَرْف
يَسرميك بالحتْف
يا نفس يا نفسي
لقد مضى أمس
لا بدّ منْ بينِ
بَينَ الفريقين
لا تُطل النَّوْما
إنّ له يوما
للدّهْر تقليب
فيه أعاجيب٣٥

ولعلّ أكبر ديوان مزدوج هو كتاب المنثوي للشيخ جلال الدين مؤسّس الطريقة المولوية، وهو كتاب شعري يضمّ ٢٧ ألف بيت شعر مزدوج ويشتمل على ٢٧٥ قصة كلّها مستقاة من القرآن الكريم قصص الأنبياء وبعض قصص ألف ليلة وليلة. وطبعت فى ستة أجزاء.٣٦

بإمعان النظر فيما تمّ عرضه يدرك القارئ جليّا أن الشعر العربي النيجيري قد مرّ – في مراحل تطوّره – بأكثر المراحل التي مرّ بها الشعر العربي في بلاد العرب منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث.

الخاتمة:

فإن الباحث أقبل على كتابة هذا البحث راجيا الوقوف على أطوار الشعر العربي النيجيري عبر العصور الأدبية النيجيرية، وأثرها في تقسيم العصور الأدبية في المنطقة، فعرض أقوال الكتاب والنقاد في هذا الاتجاه مناقشا ومحللا حتى توصّل بحوله وقوته سبحانه وتعالى إلى خلاصة الدراسة التي تتمثل في النتائج التالية:

يعتبر العلامة الإلوري من أوائل من حاول تقسيم الأدب العربي النيجيري إلى عصور وتبعه في ذلك البروفيسور غَلادَنْثِيّ، والأستاذ زكريا إدريس، وغايتها عنهم ستة عصور، مرتبطة بالتغيرات السياسية، حيث سمّاها الإلوري (عصورا)، وأما غلادنثي فإنه سمّاها (فترات).

أن فكّ العصور الأدبية في نيجيريا حسب التغيرات السياسية أمر يؤدي بلا شكّ إلى التباس شديد، لشدّة الارتباط بينها دينيا وسياسيا واجتماعيا، ونلاحظ هذا المعنى صريحا عند الباحث كبير آدم تدن نفاوا، الذي عدل عن منهج الفكّ إلى منهج الضمّ والجمع بين

العصور فألف كتابه (المدخل إلى الأدب العربي النيجيري) في الجزئين: (الأدب العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي)، و(الأدب العربي النيجيري في القرن العشرين).

وفي هذا التقسيم أيضا نظر، إذ هناك حركة أدبية قبل القرن التاسع عشر قد أهمله هذا التقسيم، ويأتي التقسيم الشامل والأنسب للعصور الأدبية النيجيرية - حسب رأي الباحث – على قسمين:

- عصر الأدب العربي النيجيري القديم. (١٠٠٠م – ١٩٠٣م).
- عصر الأدب العربي النيجيري الحديث. (١٩٠٣م - .....م).

الهوامش والمراجع:

١- الإلوري، آدم عبد الله، مصباح الدراسات الأدبية في الديارال نيجيرية، الطبعة الثانية ١٩٩٢م بلا مطبعة، ص:٦٢

٢ - غلادنثي، أحمد سعيد، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف مصر، ١٩٨٢م. ص:٣١

٣ – زكريا إدريس حسين، المأدبة الأدبية لطلاب العربية في أفريقيا الغربية، مطبعة دار النور أوتشي، نيجيريا. الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م، ص:٣

٤- راجع كتابه: المدخل إلى الأدب العربي النيجيري في الجزئين: الأول في القرن التاسع عشر الميلادي، والثاني في العشرين الميلادي. دار الأمة الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

٥ - راجع: حواء محمد البخاري، الأدب العربي النيجيري بين الأصالة والتجديد: دراسة تحليلية، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، مقدم غلى قسم الدراساتالإسلامية والعربية جامعة جُوسْ عام ٢٠١٢م، ص: ٢٤ - ٢٧

٦ - حواء محمد البخاري، المرجع السابق، ص: ٢١

٧ - مرتضى بن عبد السلام الحقيقي، صور من الرؤية النقدية في الأدب العربي النيجيري المعاصر، مجلة اللسان، المجلد الثاني، العدد الخامس ٢٠١٢م، ص: ١٠١ - ١٠٢

٨ - تاريخ الآداب العربية، دار المعارف - ١٩٥٤ ، ص: ٤٨

٩ - كبير آدم، النثر العربي النيجيري: صوره وخصائصه عبر العصورن دار الأمة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م ص:٢٢

١٠- محمد آدم، (الدكتور)، النقد الأدبي في نيجيريا: دراسة تطبيقية، Millennium printing technology، Sokoto. الطبعة الأولى ٢٠١٢م. ص:٩

١١ - د. بابكر قدر ماري، الدولة النيجيرية، دار الأمة لوكالة المطبوعات، - كانو نيجيريا، ٢٠١١م، ص: ١٠

١٢ – محمد بلو ابن عثمان (السلطان)، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طبع على نفقة الحاج محمد طن إغى ظامير يرو صكتو، بلا تاريخ، ص: ٣٠ - ٣١

١٣ - أغاكا، عبد الباقي شعيب، الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري، مطبعة ألبي، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م، ص:٨٥

١٤- أغاكا، عبد الباقي شعيب، المرجع نفسه، ص: ٨٥

١٥ - كبير آدم تدن نفاوا، المدخل إلى الأدب العربي النيجيري فى القرن التاسع عشر الميلادى، ص: ٦٣ - ٦٤

١٦ - الدكتور محمد آدم، مرجع سبق ذكره، ص:١١

١٧ - أغاكا، المرجع السابق، ص: ٨

١٨ - مساما أبوبكر آدم، فن الرثاء عند الأستاذ عبد الله بن فودي: دراسة وتحليل، رسالة مقدمة إلى قسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي، تكملة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية ٢٠٠٩م ص: ١٦

١٩ - عبد الله بن فودى، تزيين الورقات، ص: ٢٠ - ٢٤ والقصيدة طويلة، بلغت عدد أبياتها أربعة وستين بيتا.

٢٠ – د. علي أبوبكر، الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠ عام الإستقلال، دار الأمة كانو نيجيريا، الطبعة الثانية ٢٠١٤م ص: ٣٧٣

٢١ - الدكتور محمد آدم، مرجع سبق ذكره، ص:١٥

٢٢ - كبير آدم تدن نفاوا، المدخل إلى الأدب العربي النيجيري في القرن العشرين الميلادي، ص:٦ – ٧

٢٣ - شيخو أحمد سعيد غلادنثي، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٠٩ – ٢١٠

٢٤ - الدكتور محمد آدم، مرجع سبق ذكره، ص:١٥ - ١٦

٢٥ – هو الشيخ أبو بكر محمود جومي، الداعية المشهور في نيجيريا. ولد في يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٢م. ومنذ أن كان تلميذا في المدرسة الابتدائية كان يسبق أقرانه

في شتّى المجالات ممّا جعله يفوز بتقدير العلماء وتشجيع إدارة المدرسة، ويحظى بإعجاب زملائه من التلاميذ. وممّا يدلّ دلالة واضحة على تفوّقه في الذكاء والإشادة بفضله وعلمه وثقافته الجوائز

التقديرية الوطنية والعالمية التى فاز بها، وآخر هذه الجوائز التي حازها وأكبرها قدرا هي جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٨٧ م. محمد المنصور، الشيخ أبو بكر محمود جومي: حياته

مواقفه وآراؤه، بحث تكميلي مقدم إلى كلية الآداب والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات الإسلامية جامعة عثمان بن فودي صكتو، لنيل درجة الماجستير، عام ٢٠٠٠م. ص:٤٨

٢٦ – غلادنثي، مرجع سبق ذكره، ص: ١٦١ – ١٦٢

٢٧ – الدكتور بابكر قدر ماري، مرجع سبق كره، ص: ٣٩ – ٤٠

٢٨ – وكان مولده يوم الأحد عام ١٩٣٩م في صُكُّتُو. نشأ الأستاذ أحمد صابر بين أسرته يتيم الأم، فشرع يتلقى القرآن الكريم لدى والده، وبعد ختمة قرآنية وقراءة بعض الكتب الدينية على يد والده

واصل ينتقل من عالم إلى آخر طالبا ومستفيدا، وبعد الاغتراف من بحور الشيوخ الأجلاء في مدينة صكتو التحق بمدرسة العلوم الشرعية بكنو عام ١٩٦٢م، ثم واصل دراسته بكلية عبد الله بَايَرُو بقسم

اللغة العربية وتلقى فيها الدراسات التمهيدية ثم الدراسات الجامعية ونال شهادة الليسانس بدرجة الامتياز، ثم سجل في الكلية نفسها لدراسة الماجستير، وموضوع رسالته: "أبو الفرج الأصفهاني ومصادر

كتابه الأغاني" إلاّ أنه ابتلي بحادث وهو على طريقه للعودة من صُكُّتُو إلى كَنُو، فأصيب بصدمة فصارت سببا لشلل بعض أعضائه، ومع ذلك كله لم يتوقف عن كتابة بحثه، بل استعان في ذلك

بزوجته أسماء حيث يملي عليها وهى تكتب له. إلى أن أكمل البحث عام ١٩٧٩م، وهو لا يزال مريضا على سريره. وتوفي – رحمه الله – عام ١٩٨٤م بعد أن قضى ثمانية أعوام في المرض بداره بمدينة كَنُو.

٢٩ – أويس إبراهيم، ديوان المرحوم أحمد صابر دارسة، وتحقيق، وتعليق الطبعة الأولى ديسمبر ٢٠١٢م، Daylight Printing Press Sokoto ص:١٠ وما بعدها.

٣٠ – الدكتور محمد آدم، مرجع سبق ذكره، ص: ٢٤

٣١ – الدكتور محمد آدم، المرجع نفسه، ص: ٢٥

٣٢ – من مواليد ١٩٦٧م في إليشا ولاية أوشن نيجيريا. التحق بالمعهد العربي النيجيري في إبادن وحصل على شهادة الدبلوم في الدراسات العربية عام ١٩٨٦، ثم واصل دراسته بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية جامعة إبادن، وتخرج عام ١٩٩٢م، وحصل على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها عام ١٩٩٥م، والدكتوراه سنة ٢٠٠١م، وحصل على مرتبة الأستاذية في اللغة العربية عام ٢٠١٠م في الجامعة نفسها.

٣٣ – د. عزّ الدين أديتنجي، اتجاهات الشعر العربي النيجيري الحرّ: ديوانا (الليل الأبيض) و(السجن المفتوح) للأستاذ الدكتور عبد الحفيظ أيندي أولادوسو نموذجا، ورقة قدمت للمؤتمر الدولي الثالث والثلاثين، نظمه جمعية معلمي الدراسات العربية والإسلامية في نيجيريا، بين ٧ –١٠ /١٢/ ٢٠١٠م، ص: ١٣

٣٤ – د. مساما، أبوبكر آدم، الدكتور إبراهيم جالومحمد جالنغوديوانه: لسان الشعب، Millennium Printing Technology Emir Yahaya Road, Sokoto. ٢٠١٥م، ص: ١٢٩

٣٥ – هدارة محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي فى القرن الثاني الهجري، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية بلا تاريخ. ص: ٥٤٤ – ٥٤٥ نقلا من ديوان أبي نواس رواية الأصفهاني.

٣٦ – عليّ بن نعيق الشّحود، موسوعة المفاهيم الإسلامية، نسخة إلكترونية المكتبة الشاملة الإصدار الثالث القسم: الدعوة والتربية والأخلاق، ج: ٢ ص: ١٧٩